المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

تاريخية علم الكلام ومكانته في الفكر الاسلامي

د .دكار محمد أمين، أستاذ محاضر –ب-
قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية / جامعة سعيدة

تاريخ الارسال: 01 ماي 2018.	تاريخ القبول: 04 ماي 2018.	تاريخ النشر: 01 ديسمبر 2018.

ملخص:

يتناول هذا المقال المعنون :تاريخية علم الكلام و مكانته في الفكر الإسلامي أحد أهم انتاجات العقل الإسلامي بوصف علم الكلام من أهم العلوم العقلية التي تناولت مسائل مختلفة و حاولت معالجتها من منظور عقلي نقلي محاولة التوفيق بين ما هو نصي تقريري و ما هو عقلي تأويلي ، كما تناول بصفة مختصرة معالم تطور هذا العلم و المكانة التي حظي بها في الفكر الإسلامي مع التطرق لأهم مبادئه ، و أهم المسائل التي خاض فيها على غرار مسألة كلام الله و ما صاحبها من أسئلة من كونه حادث أم قديم .و مسائل العدل و التوحيد و الكلام في الصفات و الأسماء...بالإضافة إلى علاقة علم الكلام بالعلوم الأخرى مثل الفقه .

الكلمات المفتاحية: فكر اسلامي، علم الكلام، اللاهوت، الفقه

abstract

This article entitled: "Historical Theology and its Position in Islamic Thought" tackles the historical theology as one of the most important productions of the Islamic mind as it is categorized among the most significant mental sciences that dealt with different issues trying to treat them from a mental perspective. Further, it seeks to reconcile between what is script and what is a mental explanatory. The article also dealt briefly with the features of the evolution of this science and the prestige that it gained in the Islamic thought through addressing its major principles and the most important issues that historical theology had addressed such as: the issue of the Word of God and other questions related to it from being an accident or old, justice issues and uniformity and speech about qualities and names ...etc. in addition to the relationship between theology and other sciences such as jurisprudence.

Mot clefs

Islamic Thought ; jurisprudence; mental sciences

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

مقدمة:

علاقة الفكر الإسلامي بتاريخ المسلمين علاقة فعالة لا تحتاج إلى برهان أو تأكيد، ولعل هذا الولاء يتمثل في القول: إن الدين الإسلامي بوصفه معتقدات لا ينفصل عن السلوك لدى المسلمين، وهنا ندرك حقيقة تأثير الفكر الإسلامي أنه، وعبر تاريخه الطويل، كان دائما يعيد زمام القيادة إلى يد الأمة المسلمة، والمساءلة التاريخية في ضوء التراث تبرز الأدوار المختلفة التي لعبتها مجموعة من العلوم قديما وحديثا، وحاولت جميعها أن تجمع الثنائية التي نشأ من خلالها الفكر الإسلامي والتي تتمثل في شقها الأول في القرآن الكريم، وشقها الثاني في الواقع الاجتماعي المتفاعل المتطور مع الضروريات الحياتية من ناحية، ومع مبادئ الإسلام من ناحية أخرى[1]. ويأتي في مقدمة هذه العلوم علم الكلام، والذي عُرّف على أنه البحث في الأحكام الاعتقادية من الشريعة الإسلامية، أو الأصول الدينية الكلية للإسلام[2] وقد أخذ هذا العلم عدة تسميات، فسُمي "علم التوحيد" و"الفقه الأكبر" و"أصول الدين"، و"علم العقائد الإسلامية"، لكن تعارف العلماء والمؤرخون على تسميته بعلم الكلام. وفي سبب تسميته بعلم الكلام تعددت الأقوال، ويمكن إجمالها في ثلاثة أسباب وهي:

1- كانت أول مسألة تبسط للبحث في هذا العلم هي مسالة كلام الله هل أنه حادث أم قديم؟

1- إن المتقدمين من العلماء كانوا يقسّمون أعمالهم إلى فصول ويعنون كل فصل بالقول كلام في العدل، كلام في التوحيد، كلام في الصفات...

2- قوة الحُجاج في المناظرة والمجادلة عن طريق الكلام[3].

وقد حُصرت وظيفة علم الكلام في بداية نشأته في الدفاع عن العقيدة. ويورد الفارابي أن "الكلام يتعلق بنصرة العقائد والشرائع التي صرح بها واضع الملة وتزييف ما خالفها بالأقاويل[4] واضاف أبو حامد الغزالي بأن الهدف منه "حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش اهل البدعة[5].

وجدير بالذكر هنا أن نميز في مسألة تاريخية مهمة ، وهي التمازج الذي حصل أول الأمر بين علم الكلام والفقه، والذي ميزه اختلاف الموضوع والمناهج. فالفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة في أدلتها التفصيلية. ويميز الفارابي بين الفقه وعلم الكلام، فيورد قائلا:"...ويتعلق الفقه باستنباط ما لم يصرح به واضع الملة مما صرح به في العقائد والشرائع."[6] "والاستنباط في الفقه يبنى على الأقيسة لاستخراج الأحكام كالحلال والحرام والمكروه والمباح وما

---

[1] محمد الكتاني جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب- 1992 – ص 375

2 حسن محمد الشافعي – المدخل إلى دراسة علم الكلام –منشورات ‘دارة القرآن والعلوم الإسلامية –كراتشي باكستان –ط، 1 ،2001 - ص 9

[3] شمس الدين جعفر محمددراسات في العقيدة الإسلامية دار التعارف بيروت لبنان- ط3، 1996 – ص 20 و 21

4 أبو نصر محمد الفارابي ‘حصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين –المكتبة الأنجلومصرية –ط 3، 1968 – ص 131

5 أبو حامد الغزالي- المنقذ من الضلال، تحقيق عبد الحليم محمود –دار المعارف مصر –ط 3، 1988 –ص 13

6 الفارابي- إحصاء العلوم - ص 131

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

إلى ذلك، أما النصرة في الكلام فتبنى على الجدل العقلي أو الدليل النقلي أو بهما معاً".[1] وهنا ستوجه وظيفة علم الكلام نحو الصبغة الدفاعية حيث يمكن القول أنه كان استجابة لظروف التحدي التي احدقت بالعقيدة الإسلامية، ولا بد أن نتحدث عن السياق الخارجي لنشأة الفكر الإسلامي، وهذا السياق لم يكن سوى مجرى التاريخ العام الذي عرفته الجزيرة العربية ومَن حولها من الأمم المحيطة بها، والتفاعلات القائمة بين مجتمعاتها، مع العلم أن عقيدة الإسلام لم تكن عقيدة قومية[2]، بل كانت عقيدة عالمية كونية، والدليل في ذلك أنها اتجهت إلى نشر مبادئها عبر الأقطار والبلاد المجاورة، فكانت التي تحقق بها نشر الإسلام في بلاد الشام وفارس ومصر وما وراء بلاد فارس كالهند وخراسان وغيرها من المناطق. وهنا نشير إلى أن العقيدة الإسلامية كانت تسير نحو إقامة حضارة سيكون علم الكلام أحد الروافد المؤسسة لهذه الحضارة التي ستتبلور خاصة مع ظهور الدولة الإسلامية ثم الدولة العباسية، ووجب أن ننوه بأن هذه الحضارة الإسلامية تشكلت وفق أسس دينية عقلية يمكن 'اجمالها في:

1- ثقافة ربانية مصدرها الرئيسي الوحي (الكتاب والسنة)، إنها ثقافة تجمع بين الحديث في الدين والحديث في السياسية وشؤون الملك والدولة، أي أنها تجمع بين الوة الروحية والقوة السياسية والمادية.[3]

2- ثقافة إنسانية عالمية (العموم والعالمية) إنها ثقافة لا تفرق بين إنسان وآخر، فهي صالحة لأن تكون ثقافة لكل إنسان بغض النظر عن لونه ودمه وموطنه، فهي عامة لجميع البشر وهي ليست خاصة بقوم ولا محصورة بمكان ولا محدودة بزمان، بل هي حضارة تحارب كل دعوة للعنصرية.[4]

3- ثقافة شمولية من حيث التأثير إضافة إلى الشمول في الناحية الإلزامية ومن ناحية ما تضمنته الشريعة الإسلامية وخطته في المسارات والوجهات، وهي شاملة من حيث أنها ثقافة لم تتناول جانبا في حياة الإنسان دون جانب، بل عالجت جميع شؤونه.

4- ثقافة ذات قيم سامية، إنها ثقافة مبنية على الإيمان بالله واليوم الآخر، وهو ما يمثل للمسلمين أقوى دوافع الخير، وأقوى باعث لوجود القيم والمثل في الحياة، إنها ثقافة أخلاقية أخذ فيها البعد الأخلاقي حظا ونصيبا وافرين.[5]

1 وهيب اسطاطي ، ابراهيم محمد الجميل – التفكير الفلسفي الإسلامي –دار الكتب بيروت، لبنان – د ت – ص 9

2 محمد الكتاني- مرجع سابق – ص 374

3 عز الدين الخطيب التميمي وآخرون – نظرات في الثقافة الإسلامية – دار الشهاب الجزائر – 1988 – ص 21

4 المرجع نفسه – ص 22

5 نفسه –ص 26

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

هذه الخصائص وغيرها مستمدة من العقيدة الإسلامية التي جاء علم الكلام للدفاع عنها ورد الشبهات الواردة نتيجة الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري، حيث كان لهذا الاحتكاك دور خاص في نشأة علم الكلام. ويمكن تلخيص هذا الاحتكاك في أمرين اثنين:

أولاً: أن المسلمين، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، قاموا بحروب عدة بغية نشر الإسلام وبسطه في العالم، ودعوة جميع البشر، على اختلاف أديانهم وقومياتهم، إلى الدخول في الإسلام، وهذه الدعوة أدت إلى أسر الكثير من الذين جابهوا الدعوة، فانتقلوا إلى ديار الإسلام بآرائهم وأفكارهم وعقائدهم.

ثانياَ: حركة الترجمة التي ترتب عليها انتقال الفلسفة اليونانية إلى المسلمين، ووجود نشاط فكري هائل امتد أثره فيما امتد إليه علم الكلام. ويؤكد المؤرخون أن انتقال الفلسفة اليونانية كان انتقالا كليا وليس انتقالا جزئيا، حيث انتقلت بمسائلها وأدواتها ومشكلاتها، وكل ذلك بدوره أدى إلى حركة فكرية لم يستنكف المتكلمون المسلمون فيها أن يستفيدوا مما قدمته الفلسفة اليونانية من أدوات عقلية تعين على البحث العقلي، وإن كانت النتائج التي توصل اليها علماء الكلام جد مختلفة عن نتائج الفلاسفة، لأنهم لم يعتمدوا العقل وحده، كما فعل الفلاسفة، بل اعتمد المتكلمون العقل كأداة لفهم النقل والتعمق فيه. وهنا نجد أن الترجمة من العوامل التي أدت غلى ازدهار علم الكلام إبان العصر العباسي وأعانت على تحديد مسائله وتعميق مباحثه ودقة مناهجه[1] ويمكن أن نجمل منهج المتكلمين في:

1- البرهان الكلامي: فالمتكلم يتسلم مقدمات ويستنتج منها نتائج، وتسمى هذه الطريقة بالتمانع أو إبطال اللازم بإبطال الملزوم، حيث أن المتكلم يبدأ بأقوال الخصوم ثم يصل عن طريق البرهان إلى نتائج تناقض هذه القوال فتبطلها[2]. ويذكر الغزالي أن علماء الكلام "اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم واضطرهم إلى تسليمها ‘امّا التقليد أو إجماع الأمة، او مجرد القبول من القرآن أو الأخبار[3]

2- التأويل: لقد حاولت كل فرقة تأويل النص القرآني والنبوي بما يظهر لعامة الناس أنها الفرقة الناجية وبما يخدم مصالحها السياسية، حيث أن لكل فرقة في كتاب الله حجة، حيث استخدم التأويل كسلاح وكأداة فيما كان دائرا من صراع سياسي اجتماعي. وأهم مسألة بسطت للتأويل والتي نشأ حولها الاختلاف والجدل هي الإمامة، ومن أهم الأسئلة التي طرحت: من هو الأحق بها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وهل تكون الإمامة أو الخلافة بالنص القرآني أم التعيين؟ أم تكون توافقا بين المسلمين؟ بالإضافة إلى

1 أبو الوفا الغنيمي التفتازاني – علم الكلام وبعض مشكلاته – دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة مصر – ص 23

2محمد علي أبو الريان –تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام – دار المعرفة الجامعية، مصر 1992 – ص 225

3الغزالي – المنقذ من الضلال –ص 92

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

مسألة أخرى كان للتأويل فيها الدور البارز عند المتكلمين وهي مسالة القضاء والقدر، وهل الإنسان مخير في أفعاله أم مسير؟

3- طريقة التفويض: وهي تركز المسائل التي يخوض فيها المتكلمون فوق العقل، وبالتالي نفوضها ونترك أمرها لله.

* العقل عند المتكلمين:

إن المتأمل لتاريخ الفكر الإسلامي على مدى تاريخه الطويل ظل رهين الازدواجية العميقة بين هذين الجهازين النقل أو النص الشرعي[1].

ويمكن أن نقول أن العقل في مراحله الأولى عند استخدامه انتقل العمل العقلي عنده من التسليم بما جاء به النص القرآني والنبوي وبخاصة فيما يتعلق بأمور العقيدة إلى محاولات الشرح والاستقصاء، ويمكن اعتبار أن دور الاستدلال العقلي، وبخاصة على العقائد، مظهر من مظاهر تطور النظرة العقلية في المرحلة المدرسية.

ويقسم المعتزلة الدلالات في علم العقائد بشكل عام إلى أربع دلالات: حجة العقل، حجة النص، حجة السنة، حجة الإجماع[2]. وإذا تأملنا القضايا الرئيسية التي أثارت الجدل بين هؤلاء المختلفين في تاريخ الفكر الإسلامي وجدناها قضايا متنوعة الأصول والمصادر، مختلفة الميادين والمجالات. فهي تختلف بين مصادر وأصول اعتقادية، ونزعات سياسية، ومذاهب فقهية وتشريعية، وأحيانا نجدها قضايا أصور منهجية ومعرفية وكلها تعكس الاختلاف الأساسي أو الجوهري حول تحديد مرجعية الإنسان، ونقول أن التيار الكلامي عوّل على العقل قبل النقل، والتيار الفقهي عوّل قبل العقل على النقل، في المقابل نجد التيار الصوفي عوّل على القلب. وكل هذه التيارات الكبرى التي شكلت الفكر الإسلامي بتاريخه الطويل، قد نشأت بحكم التخصص الذي فرضته البيئة الاجتماعية والعقلية، وبحكم الانتحاء بالتجربة الدينية منحى الممارسة المنشودة، ولا سيما ما يتصل بأعمال القلوب في مقابل أعمال الجوارح[3].

وكان المعتزلة من الباقين لتحديد أسلوب الدفاع وإدخال العنصر العقلي فيه. ومن المهم أن نلاحظ أن هذا الأسلوب العقلي كان في بادئ الأمر يقوم على قواعد مستمدة في عمومها من خصوصيات الفكر الإسلامي مستفيدة من القواعد التي وضعها الإمام الشافعي لعلم أصول الفقه[4] وأهم هذه القواعد:

1 محمد الكتاني – مرجع سابق – ص 437

2 القاضي عبد الجبار الهمداني – شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان –مكتبة وهبة ، القاهرة مصر – ط 3، 1996 – ص 88

3 محمد الكتاني – مرجع سابق – ص 433

4 محمد الكتاني – مرجع سابق – ص 433

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

أولاً: قياس الغائب على الشاهد، أي قياس افعال الله تعالى وصفاته على أفعال الإنسان، ويعد أحد أهم ملونات الفكر الاعتزالين كما انه يعد على رأس مناهج الاستدلال، ويُعد من أكثر المناهج استخداما وأوسعها شهرة وانتشارا بين المتكلمين، لاسيما المعتزلة، ويعد أحد أهم الدلالات في الدفاع عن الأسس التي وضعها المعتزلة لأنفسهم أو في الرد على لخصوم[1] ويمكن إجماله في أن تقاس قضية تخص أمراً ما وراثيا، ثم تعطى الأولى حكم الثانية لجامعٍ بينهما يعتقد أنه لا يتغير مع تغايرهما، كالعلة والحقيقة والشرط. ومثال ذلك ما استدل به الأشاعرة على ثبوت صفة العلم لله تعالى زائدة عن ذاته[2].

ثانيا: إنتاج المقدمات النتائج، هو أن توضع مقدمة واحدة ثم تستخرج منها النتيجة[3].

ثالثا: الاستدلال بالمتفق عليه على المختلف فيه، مثل الاستدلال على أن أي جوهر لا يخلو من لون انطلاقا مما هو متفق عليه من أنه لا يخلو من عرض[4].

رابعا: السبر والتقسيم: وهو أن تورد في القضية المبحوثة كافة الاحتمالات العقلي، ثم تناقش تلك الاحتمالات واحدة واحدة وتبطل بالأدلة، ويبقى احتمال واحد لا يرد عليه بالإبطال، فذلك هو الذي يكون حقان او تبطل جميعها فتكون القضية باطلة[5].

خامسا: الإلزام وهو استدراج الخصم إلى نتيجة مخالفة لما ادعاه بتسليمه بمقدمات تلزم عنها تلك النتيجة[6].

والشيء الأكيد أن هذه القواعد وهذه المنطلقات لم تكن لتتأسس دون هدي عقيدي يميز منهجهم ويؤطر رؤيتهم. فقد كان الهدي القرآني دليلا لها. فالقرآن، فضلاً عن كونه كتاب شرع، فهو كتاب عقيدة. والعقيدة تشتمل على معرفة الخالق ومعرفة المخلوق ومعرفة العلاقة بينهما. إن المتكلمين بعد استعمالهم لتلك القواعد العقلية أكثر من ثلاثة قرون، رأوا أن هذه القواعد لم تعد كافية لمجابهة الخصوم وإقناعهم، وذلك لأن هؤلاء تكوّن الكثير منهم على عقلية تربت على المنطق الأرسطي، حيث يعد أهم حدث في مجال الأسلوب العقلي عند المتكلمين هو إدخال المنطق الأرسطي في الاستدلال الكلامي وذل ابتداء من القرن الخامس.

* الأصول الخمسة للمعتزلة.

1. التوحيد: يذهب المعتزلة إلى القول بأن كل الصفات الإلهية تعود إلى ذاته تعالى. فهو عالم بذاته، سميع بذاته، قدير بذاته، خبير بذاته. فهذه الصفات إذا لم تكن كذلك شاركته

1 عبد المجيد عمر النجار مباحث في منهجية الفكر الإسلامي دار الغرب الاسلامي بيروت لبنان ط1 1992 ص 112

2 حسن الخطاف – قياس الشاهد على العائب وأثره في تكوين العقل الاعتزالي – إسلامية المعرفة – العدد 44، 2006

3 عبد المجيد عمر النجار – مرجع سابق – ص 112

4نفسه – ص 113

5نفسه – ص 113

6 نفسه – ص 113

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

ذاته المقدسة في القدو، وهذا يؤدي غلى القول بالتعدد في القدم، وهذا يستحيل في حقه تعالى.

2. العدل: من عدل الله أن افعال العباد محدثة خلقها فاعلها ولم يخلقها الله، فإذا عوقب الإنسان على فعل لم يخلقه عُدّ ذلك ظلما والظلم يستحيل في حقه سبحانه وتعالى.
3. الوعد والوعيد: بمعنى أن مرتكب الكبائر مخلد في النار، ومن فعل الحسنات فمصيره الجنة. والأشاعرة يخالفون المعتزلة ويقولون بالشفاعة الغفران. فالله سبحانه وتعالى قادر أن يغفر لجميع خلقه، فهو مالك لخلقه يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد. فلو أدخل الناس جميعا النار لا يُعدّ ذلك جوراً ولا ظلما، ولو أدخلهم جميعا الجنة لم يكن ضلالاً، لأن الظلم والجور يليق بذاته المقدسة.
4. المنزلة بين المنزلتين: هذا الأصل يهدف إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا كافرا، وإنما يسمى فاسقا، فهو من حيث الإيمان والكفر في منزلة بين المنزلتين. قال القاضي عبد الجبار في كتابه "شرح الأصول الخمسة": "لا يكون اسمه اسم الكافر ولا اسم المؤمن ، وإنما يسمى فاسقا. وكذلك فلا يكون حكمه حكم الكافر ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث. وهذا الحكم الذي ذكرناه هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين، فإن صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر، ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما[1].
5. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذا الأصل بمثابة قاعدة أخلاقية، ولم يأخذ هذا الأصل الاهتمام الكبير مثلما لقيتيه الأصول الربعة، وهذا لارتباطه بالجانب السياسي المتمثل في حاكمية الحاكم.

لقد لعب علم الكلام في الفكر الإسلامي دورا رئيسيا في بناء المنظومة المعرفية بحيث تميزت موقعيته في تمثله التنامي والتغيرات الطارئة على هذه المنظومة المعرفية، ومع مرو الوقت شهد هذا العلم انتكاسات خطيرة في تاريخه كادت تأتي عليه كله، وبالتحديد فإن ما آل إليه بعد القرن الثامن وإلى غاية اليوم أدى في كثير من المنحطات الفكرية إلى تجاوز، بل أدى إلى نقمة الكثير من السلمين عليه، بل وهناك من قال بمعاداته وشجبه باعتباره علماً لا يؤدي دورا في خدمة العقيدة، بل ولعله يسيء لإليها بما انتهى إليه من التعقيدات، إلاّ أنه بالمقابل هناك رؤية تؤمن بأن التجديد في علم الكلام هو بتحويل الجهد الكلامي إلى الاهتمام بالواقع المعيش من خلال إعادة تأسيسه وطرحه، من إعادة بسط مسائلها وتجددها من جهة وتجدد منهجه، بحيث أن المنهج الجدلي القائم

1 عبد الجبار بن أحمد – شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان – مطبعة الاستقلال الكبرى القاهرة مصر – ط 1، 1964 –ص 967

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

الذي كان قائما لم تعد له القدرة على مسايرة القضايا المطروحة اليوم، بل وحتى مزاوجة علم الكلام بالفلسفة، كما حصل في الماضي، لم يعد له قيمة من الناحية المنهجية نظرا لأن الفلسفة في حد ذاتها خضعت لعدة تغيرات، سواء على المستوى البنيوي أو على المستوى الموضوعي والمنهجي. ولا بد، في إطار إحياء المشروع الكلامي أن ينوط بوظائف تساير التطورات السريعة والمتلاحقة التي يعرفها العالم اليوم.